أنماط الصورة الفنية في قصة القميص سورة يوسف
[الصورة البصرية – الحركية – الشمية واللمسية]

سعود فطيمة، سعود مريم
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الجلفة

الصورة الفنية والحواس:

لقد تنكر كثير من البشر على مدى الأزمان للأمور الغيبية، في حين أظهروا إذعانهم لما يقع تحت طائلة حواسهم، وذلك طبع تميل النفس الإنسانية إليه، وهو ما أحكم إيضاحه "الجرجاني" بقوله: "أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه، إلى آخر، هي بشأنه أعلم، وثقافتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس... لأن العلم المستفاد من طرف الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع... يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر، في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة"[1].

وهذا الأمر ينطبق على جميع الأشياء بما في ذلك الصور الفنية، والتي تفيد على جانب تحقيق عنصر المتعة، شد الانتباه، وتقريب المعاني، يقول كوفن: "أوضح الصور الفنية، وأكثر الأشياء المرئية ثباتا في الذهن... دائما أشياء

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني **أسرار البلاغة في علم البيان**، تعليق. محمد رضا رشيد، تصحيح: محمد عبده. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. سنة 1988، ص 102.

كتلك التي نستطيع أن نبصرها، ونلمسها، ونسعها، ونشمها... ونتذوقها، ونشمها... وعليه فالصور نتاج لعمليات مركبة تتم بواسطة الحذف والتعديل، والتركيب، والانتخاب"[1]. وفي قصة القميص من سورة يوسف عليه السلام، تتوافر أنماط ثلاثة للصورة الفنية، مؤدية عنصر التأثير من خلال ما تبثه من مسرة أو إشفاق أو فجأة، والصورة بهذا المعنى "تجربة نفسية يعيشها المرء"[2]، تتأتى من خلال الاختيار الدقيق للألفاظ والعبارات: لفظا ومعنى وموقعا، مما يفضي إلى إيحاءات ودلالات تحرك أغوار النفس، وتستدعي مخزون الخبرات والتجارب. إن القميص في سورة يوسف عليه السلام، يتجاوز كونه لباسا، إذ أنه يأخذ أبعاد أعمق، فالسياق القرآني يظهره في مواقف مختلفة، مؤديا في كل منها دورا فيصلا، وذلك من خلال خاصية التصوير الفني كما يلي:

1- **الصورة البصرية (قميص الكذب):**

لقد أثبت السياق القرآني من خلال الآيات: (7- 8- 9- 10)، النيّة المُبَيتة ليوسف عليه السلام، والمكيدة المدبّرة له من قِبَل إخوته وهو مشهد التآمر، كما أثبت السياق من خلال الآية (15)، مشهد تنفيذ المؤامرة ويعقوب لا يعرف حقيقة ما جرى، لكنه في النهاية يستدل على كذبهم من خلال أمارات أقواها القميص، ويبدأ مشهد مراودة الأبناء الوالدَ على اصطحاب يوسف عليه السلام، وها هم أبناء يعقوب عليه السلام يحاولون إقناع أبيهم بطلب تَقدّموا به إليه. وفي بداية حديثهم يُنكرون على أبيهم عدم ائتمانهم على يوسف عليه السلام، في حين أنهم نُصحاء له بالخير والفلاح: " قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا

---

[1] - نعيم الياقي، **مقدمة لدراسة الصور الفنية**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق. سنة 1982، ص 74.

[2] - محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي**، دار الثقافة. لبنان. سنة 1973. ص 457.

لَهُ لَنَاصِحُونَ"[يوسف11]، ثم يلي هذا التمهيد، تمرير الطلب وهو إرسال يوسف عليه السلام معهم في الغد لأجل النزهة واللّعب: "أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[يوسف12]، ويرتع بمعنى "يتّسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، من ارْتَعَى يرتَعِي"[1] ويُجيبهم الوالد: "قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ"[يوسف13].

ويمضي الأبناء في محاولة إقناع أبيهم، تارة بالإحراج، وتارة بالإغراء، وأخرى بالتأكيد، وها هي طريقة أخرى للإقناع، وذلك بالرد على الحجة التي تعلّل بها يعقوب حين قال لهم: "قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ"[يوسف14]، لقد أقنعوا الوالد بكثرتهم وقوتهم ومنعتهم التي تؤهلهم لحفظ أحيهم وهم (عُصبة) أي جمع أقوياء، وإلا فلا خير فيهم بشهادتهم على أنفسهم "إنا إذا لخاسرون". وبعد أَخْذٍ ورَدّ وأمام هذا التكالب على يعقوب عليه السلام وإقناعه من كلّ الجهات،لم يجد بُدّا من الاستجابة وإرسال يوسف - عليه السلام- مع إخوته. وهو ما حدث بالفعل في اليوم الموالي، وبعد انقضاء النهار وحلول الليل، يعود الإخوة من نزهتهم لكن بفاجعة، وقد صوّر السياق القرآني هذه الفاجعة من خلال الآيات: "وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ"[يوسف16]، فها هم يدخلون على أبيهم حين حلول الظلام باكين، وظاهر حالهم أنَّ في الأمر خطبا "قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَو كُنَّا صَادِقِينَ"[يوسف17]، "وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ.. "[يوسف18] : هي عبارات تلفّظوا بها لأجل إبراء ساحتهم، لكن أمارات

---

[1] - الزمخشري أبو القاسم جار الله محمد بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. دار المعرفة. لبنان. مج2. ص 305.

الكذب تنجلي من حالهم ومقالهم ودليلهم: فأمّا حكاية أنّ الذئب أكله فهي مُلفّقة ومكشوفة ودالّة على تسرّعهم. إذ لم يتسنّى لهم الوقت الكافي ليختلقوا حكاية أخرى غير التي أخذوها جاهزة من فم أبيهم "فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا به في الصباح ليتركود للذئب الذي حذرهم أبوهم منه بالأمس"[1]. وأمّا قولهم ".. وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَو كُنَّا صَادِقِينَ"[يوسف17]، فهو تصوير يفضحهم، إذ إنهم اتهموا أنفسهم بالكذب قبل أن يتهمهم أحد، ويكاد المريب يقول خذوني[2]. وأما القميص الذي جاءوا به ملطّخا بالدم فقد اعتقدوا أنه الدليل المادي الذي سَيؤكد مقالهم لكنّهم وقعوا في شر أعمالهم، وانقلب الدليل ضدهم. وصوّر السياق القرآني الدم بأنه كذب "بدم كذب" والدم لا يكذب، إنما كَذِبَ من جاء بدم ووضعه على القميص " إنه وصف بالمصدر للمبالغة[3]، كأنه الكذب نفسه وعينه "كما يقال للكذاب هو الكذب عينه، أو تصف شخصا شريرا، فتقول هو الشر عينه، أيْ أنّ الشرّ تجسّد فيه، والكذب في القميص يكاد يصرخ ويقول: أنا كذب، لأنه ليس بدم يوسف"[4].

وللروايات في هذا طُرْفة، إذ عجب يعقوب - عليه السلام- من أمْر الذئب حين رأى القميص وقال: "تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني

---

[1]- سيد قطب : **في ظلال القرآن في الميزان**. مج4، ج12-18، شركة الشهاب. الجزائر. ط1، سنة 1986. ص 1976.

[2]- عبد الكريم الخطيب: **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص418.

[3]- الزمخشري: **الكشاف**. ص307

[4]- محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**، أخبار اليوم، قطاع الثقافة. مج11، ج1. ص6889

ولم يمزق عليه قميصه؟!"[1] وربما نسي الإخوة تمزيق قميص يوسف - عليه السلام- بعد أن لطّخوه بدم ملفّق لشاة أو نحوه، وذلك من رَبْكَتِهم، فهم لم يُصدقوا أن الفرصة قد أتيحت لهم فعلا للتخلص من يوسف عليه السلام. "وهل يجد ولي الدم قُدرة من نفسه على حمل إصبع أوعين أو رأس من ابنه أو أخيه المقتول، ثم يطوف بها ويعرضها على الأنظار؟ ذلك ما لا يكون لو أن الذئب حقا هو الذي عدا على يوسف وافتراسه"[2].

بعد كل هذه القرائن الدالة على كذبهم يفضح الوالد كذبهم ". قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"يوسف18]، و(سولت) بمعنى سهّلت من السَّوْل وهو الاسترخاء"[3].

وهكذا كان القميص دليلا على كذب الإخوة فيما زعموه من أن الذئب أكل يوسف عليه السلام، فبدلا من أن يصدقهم هذا الدليل إذا به يُوظّف ضدّهم، ففضحوا أنفسهم وما يدرون. ولم يجد يعقوب عليه السلام من حيلةٍ أمام هذا الوصف الكاذب، إلا الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه من قدر الله إلى العباد، بل إلى رب العباد. "..وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"[يوسف18]، وقد صوّر اللفظ (تَصِفُونَ) أنَّ الكلام الذي قالوه إنما هو مجرد وصف. وليس الحقيقة "فتصفون يعني أنكم لا تقولون الحقيقة، بل تصفون شيئا لا يصادف الواقع"[4].

2- **الصورة الحركية (قميص البراءة)** : إنه مشهد المراودة من بداية إلى نهايته (من الآية 23 إلى الآية 29)، يعرضه السياق القرآني والقميص في هذا المشهد

---

[1]- لزمخشري : **الكشاف**. ص307

[2]- عبد الكريم الخطيب: **القصص القرآني**. ص418

[3]- الزمخشري : **الكشاف**. ص308

[4]- محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**. ص6893

دليل على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز من تهمة الاعتداء على امرأة العزيز فالعزيز لم يكن حاضرا منذ البداية، ولا يعرف من الموقف إلا بعض جزئياته، لذا كانت الحاجة إلى دليل مادي: "وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَو عَذَابٌ أَلِيمٌ"[يوسف25]، "وَاسْتَبَقَا الْبَابَ" مشهد يصور الحركة السريعة الخاطفة، فلقد أفاد اللفظ (استبقا) سباقا بين شخصين: يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، والسباق معناه رغبة كل متسابق في غلبة الآخر، ولا معنى للانتصار من دون وجود الطرف الآخر وضرورة تجاوز الحد الذي هو فيه، وانطلق السباق باتجاه الباب، وإذا بالعزيز يصل : ".. وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ.. "[يوسف25][1]. ولابد من وقفة عند جزئية حدثت أثناء السباق توحي بالكثير، أثبتها السياق القرآني: "..وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ.."[يوسف25]. صورة هامة وخطيرة، تُبيّنُ ترتيب المتسابقَيْن: يوسف عليه السلام ومن خلفه امرأة العزيز[2]، وعندما يصل العزيز يأخذ السباق مسارا آخر غير الجري والحركة، فيتحول إلى سباق بين الكيد والحق ويبدأ على لسان امرأة العزيز: ".. قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا.."[يوسف25]، تُصوّر هذه الكلمات إدعاء المرأة وقلبَها للحقائق، وتذكير العزيز بمقامها عنده (بأهلك)[3]. وأمام هذا الاتهام الخطير، وهذا العقاب والوعيد، اضطرَّ يوسف عليه السلام لِدَفْع ما نُسب إليه: "قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي.."[يوسف26] هكذا بصريح العبارة، دونما كناية إنها جرأة الحق. وهنا بلغ السباق التعادل، فكلامها يقابل كلامه، وهي تتهمه، وهو يتهمها، لذا كانت

---

[1] - أنظر عبد الكريم الخطيب: **القصص القرآني**. ص430

[2] - أنظر سيد قطب : **في ظلال القرآن**. ص 1982

[3] - أنظر عبد الكريم الخطيب : **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**. ص 115

الحاجة إلى دليل مادي، يصدق الصادق ويكذب الكاذب. في هذه اللحظة وبعد ان افاد كل طرف من السياق باتّهام الآخر. يستحضر الخيال مشهدا صامتا، يعمّه الذهول. فها هو العزيز مُطرق، حائر بين تصديق امرأته تارة، وتصديق يوسف - عليه السلام- تارة أخرى. وها هي زوجته وقد تبدّت على ملامحها شرارة الغضب والحنق. ويوسف عليه السلام وقد انتابه الذهول والترقب.

ويُفجّر هذا المشهد الصامت شاهد: ".. وشهد شاهدٌ مّنْ أهْلِهَا إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُو مِن الكاذبينَ"[يوسف26]. "وَإنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُو مِن الصَّادِقِينْ"[يوسف27]. ها هو الدليل إذن يُلفت الانتباهَ إليه شاهد من أهل المرأة[1]، وقد سمّى قوْلَه هذا شهادة لأنه لمّا سُئِل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين، سُمّيَت فَتْواه هذه شهادة،لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه.. فإن كان قميصه قُدَّ مِن قُبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها، فهي صادقة وهو كاذب، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فهو إذن من أثر تملّصه منها وتعقبها هي له حتى الباب ! وهي كاذبة وهو صادق...وقدّم الفرض الأول لأنه إن صحّ، يقتضي صِدْقها وكَذِبَه، فهي السيدة، وهذا فتى، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول"[2].

لقد أدى التقابل في الصُوَر تناسقا فنيا على مستوى المواقف:(أراد بأهلك سوءًا/هي راودتني)، وعلى مستوى الدليل : (قُدَّ مِن قُبُل/قُدَّ مِن دُبُر)، وعلى مستوى الافتراض (صَدَقَتْ وهُو مِنَ الكاذبين/كَذَبَتْ وهُو مِنَ الصَّادِقِين)، ولا يخفى ما لهذا من إيقاعٍ مطرب على الأذان والأفهام، فضلا عن إجلاء الحقائق.

---

[1] - انظر المرجع نفسه : ص 431

[2] - سيد قطب : في ظلال القرآن. مج4، ج14-18 ص 1982

لقد كان الدليل حاضرا منذ البداية، لكن أحدا لم يلتفت إليه بسبب الفُجاءة والذهول، فلما نبه إليه الشاهد، لم يبق إلا تفحصه، إنه القميص الممزق وما أدلى به الشاهد يقوم على الواقع والمنطق، فلا مجال للشك، لقد أوحى للعزيز بهذا الدليل وألقى به إليه، وها هو ذا يُحدق بالقميص ويفحصه: "فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ" [يوسف28]. لقد وَضُحَت الصورة الآن واستقام الدليل، وظهرت الحقيقة، فالقميص مقدود من الدُبر، وهنا يمكن للعزيز أن يُعيد ترتيب لقطات المشهد التي فاتته، والتي فصّل السياق القرآني الذِكْرَ فيها منذ البداية: "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُو فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"[يوسف23]. ويُقر العزيز بخطيئة امرأته: "..وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ"[يوسف29] لقد أدرك العزيز أن يوسف عليه السلام بريء، وأنَّ زَوجته هي الخاطئة والمتعمدة للذنب[1]. وهكذا كان القميص دليلا على براءة يوسف عليه السلام من تهمة شنيعة، حاولت امرأة العزيز إلصاقها به، في حين أنها كانت هي المتهالكة عليه، ويشاء الله إلا أن يُظهر الحق.

3- **الصورة الشمية اللمسية (قميص الشفاء)**: إن الشم حصيلة واحدة من الحواس الخمس وسيلتها الأنف، إذ يميز الإنسان بين رائحة وأخرى، وللناس في الروائح مذاهب، وهذا بسبب اختلاف أذواقهم وتركيباتهم الفيزيولوجية، وأيضا بسبب اختلاف الروائح نفسها "فالأراييح مثل الألوان، منها حارة، أو لطيفة معتدلة، ومنها رطبة، أو مثيرة، أو ثقيلة، أوسامة، وربما شُفي بها المريضَ، وأُنعِش البليد، وفَرِح المكروب[2] "والكيفيات الحسية سواء كانت اللمس أم الذوق، أم

---

[1] - أنظر الزمخشري: **الكشاف**. مج2.ص316

[2] - علي شلق: **الشم في الشعر العربي**. دار الأندلس. ص5

البصر، أم السمع.. هي ليست موجودات منفصلة، بل هي عناصر متداخلة متفاعلة "[1]، ليس هذا فقط بل إنها تُتيح لنا إحساسات فنية متنوعة تجعلنا ندرك الجمال ونتذوقه، فالصورة الفنية قد تكون "تَمَثُّلا ذهنيا لشيء مدرك بحاسة البصر أوغيرها من الحواس"[2] وعليه فالصورة أنماط "إحساسات بصرية وسمعية وشمية ولمسية وذوقية وحركية"[3]. وتقوم حاسة اللّمس على الجلد، وأي تلامس بين الخارج وبين الجلد يؤدي الإحساس حتى نسمة الهواء، فإنها تصيب بالانتشاء، أو القشعريرة، أو البرد.. وقد يدعو اللمس إلى "الوصال والالتحام، مثلما يدعو إلى العراك والصدام"[4]. وفي قصة يوسف عليه السلام يرتبط قميص الشفاء بقضية الحواس، فقميص يوسف عليه السلام، هو ثوب كان يرتديه، عبقت به رائحته، قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام- لإخوته: "اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ❖ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ❖ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ❖ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"[يوسف93- 96].

ويعلم يوسف عليه السلام مما علمه ربه، أنّ قميصه إن أُلْقِي على وجه أبيه، كان ذلك كفيلا بإعادة بصره إليه، فهو اليقين : "أَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا.."[يوسف93]، وهذه الصورة تنقل الإحساس بالسرعة في الفعل، والانقلاب

---

[1] - عبد الفتاح صالح نافع: **الصورة في شعر بشار بن برد**. دار الفكر للنشر. عمان سنة 1983. ص 177

[2] - رمضان الصباغ : **في نقد الشعر العربي المعاصر. دراسة جمالية**. دار الوفاء للنشر. ص261

[3] - أنظر : جابر عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**. ص271

[4] - علي شلق: **اللمس في الشعر العربي**. دار الأندلس. ص5

من حال إلى أخرى، فما إن يُنَفَّذَ الشرط حتى يحصل جوابه (أَلْقُوه/يَأْتِي بصيرا). وهذا الإلقاء يُصَوِّرُ الفُجاءة في الفعل كَوْنه خاطفا، شأن مَن يرمي شيئا، وهي فُجَأةٌ مقصودة، وذلك لما تُحدِثه على مستوى النفس.

إنّ الصحة النفسية تنعكس على الصحة الجسدية، تشبيه بهذا العلاج بالصدمة، وكثير من العقد النفسية تُفك من خلال إعادة المريض إلى أجواء الحادثة الفاجعة ذاتها، فإن هو تلقّى صدمة في هذه الأثناء، كانت كفيلة بشفائه من صدمته الأولى، إنها صورة حركية نفسية. وربما كان هذا ما حدث في هذا المشهد، فبالأمس كان القميص آخر أثر عن يوسف عليه السلام الذي توارى عن نظر الوالد، وهولا يعلم ما الذي أصابه على وجه التحديد، وتتراكم أحزان يعقوب سنة بعد أخرى فيفقد بصره، وكانت صدمته الأولى. وهو اليوم يُصدم للمرة الثانية، لكنها صدمة الفرحة هذه المرة. أمّا "كيف عرف يوسف عليه السلام أن رائحته سَتَرُدُّ على أبيه بصره الكليل ؟ فذلك مما علّمه ربه، والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة..وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول"[1].

إنّ التصوير القرآني تصوير دقيق، فلفظ الوجه له دلالات عديدة، "اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ"[يوسف93] والإلقاء على الوجه عملية مركبة تقوم على اللمس والشم والحركة، ولقد سبق بيان فضل حاسة اللمس ومقدرته على الإدراك. أمّا الشم فهو حاسة فاصلة، إذ لا يخفى على يعقوب عليه السلام، ريحُ ابنه الذي لطالما أحبه، واكتوى بنار فراقه، والقميص عبق برائحة يوسف - عليه السلام-

---

[1] - سيد قطب : في ظلال القرآن. ص 2027

هذه المرة، وليس ملطّخا بدم كذب، هو العلم واليقين بأنه قميص يوسف - عليه السلام - فلا مجال للشك أو الخديعة، إنه الدليل على حياة يوسف - عليه السلام- وسلامته بعد سنوات غياب لم يسمع فيها شيئا عنه[1].

هي الفرحة التي ينتفض لها كيان يعقوب، وإن حرقة النار التي كانت بقلبه وطال لهيبها بريق عينيه فطمسه، تتحول إلى نسائم رقيقة، تنفذ عبر مسامات الوجه إلى إحساسات يعقوب عليه السلام، فتنير القلب بنور يُبدّد ظلمة البصر "..يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ"[الحديد12]، فيبصر يعقوب عليه السلام. إنه الوجه، محل المواجهة، ومركز الاهتمام، والمرآة التي تنعكس فيها المشاعر والأحاسيس "تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ"[المطففين24]، إنه الوجه ذاته الذي تنازع الإخوة عليه، وجعلهم يفكرون في جريمة القتل، ويُقدمون على جريمة التغييب، لِقاء أنْ يخلو لهم هذا الوجه ويصفو، فلا يحول بينهم وبينه شيء: "اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ"[يوسف09]، لقد تنشق يعقوب ريح يوسف من قميصه، ولمسه بوجهه، فتراءى له حيا بحسه الذي فتَّق حواسه فأبصر[2]. "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ"[يوسف94]، تدل اللفظة "فَصَلَت" على أن شيئا كان ملتصقا بشيء آخر وانفصل عنه، و"فصلت العير"، أي خرجت من المدينة وتجاوزتها لتسير في رحلتها، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام"[3]، و(العير) "هي المطايا، من نياق أو جمال أو حمير أو بغال تحمل البضائع"[4].

---

[1] - أنظر المرجع نفسه. ص 2028

[2] أنظر المرجع نفسه ص 1973

[3] - محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي** ص 7069 والزمخشري: **الكشاف**، ص 343

[4] - محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**. ص 7042

في هذه الأثناء يجد يعقوب ريح يوسف عليهما السلام، من هذه المسافة: من مصر إلى أرض البادية حيث يقيم يعقوب عليه السلام، وهي مسافة رحلة بالعير، ويقول بعض المفسرين أنها فصلت من مصر.. وربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان، واتجهت إلى محلة يعقوب عليه السلام على مدى محدود"[1].

"..قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ"[يوسف94]، هذه الآية تُصَوّر الوضع في مكانين مختلفين في الوقتين نفسه. الوضع الأول : فصول العير من مصر. والوضع الثاني: بالبادية حيث يقيم يعقوب. ويخبر يعقوب عليه السلام الحاضرين من حوله –وربما كانوا أحفاده- بأمر غريب عليهم، وهو يعلم أنهم سيُنكرونه عليه، بل سينسبونه إلى "الفند" وهو الخرف، وفساد العقل من الكِبَر[2]. "..إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ.."[يوسف94]، وقد كان يُمكن لهذا القول أن يكون أمرا مقبولا لو أنّ يوسف –عليه السلام- في البيت، لكن الغرابة أن ليس يوسف –عليه السلام- بحاضر في البيت ولا حتى في الجوار. بل إنهم لا يدرون إن كان على قيد الحياة أصلا، وقد طوَى هذا الموضوع سنوات طوال وانقطعت الأخبار. لكن يعقوب عليه السلام واثق بما يشعر، دلّ عليه استخدام المؤكدات (إنّي) و(لَ) كما تفيد إنكار الحضور عليه مقالته. أمّا طبيعة هذا الوَجْد فربما كان ريحا شمها يعقوب - عليه السلام- بأنفه على الحقيقة، شأن الأشياء ذات الرائحة.

---

[1] - سيد قطب: **في ظلال القرآن**. ص 2028.

[2] - أنظر: ابن منظور. **لسان العرب**، تقديم عبد الله العلايلي، تصنيف يوسف خياط. دار لسان العرب. بيروت. مج2 ز-ف. مادة خرف.

وربما كانت هذه الريح صورة ذهنية أوحتها ليعقوب - عليه السلام- مشاعره وخواطره، فَتَمثَّل له يوسف قريبا كالطيف وهو أَمْرٌ لا ينفك يُراود يعقوب عليه السلام، وربما كان هذا الوجد رؤية استشفائية تخترق حدود المكان مثلما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ رأى ساريةَ قائد جيش المسلمين في الشام، يُدَبّر له العدو مكيدة، فيصيح عمر وهو على المنبر: 'يا سارية الجبل' أي اتجه إلى الجبل مُحتميا ومتحصنا، ويسمع سارية النداء ويستجيب فَيُنقذ نفسه وجيشه[1]. أمّا ارتباط تَنَسم يعقوب لرائحة يوسف -عليهما السلام- بخروج العير من مصر، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب، فربما لأن العير لحظة تواجدها في المدينة، وهي تحمل قميص يوسف عليه السلام، تكون رائحة القميص "مختلطة بغيرها من الروائح، فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أي مدينة، ويَصعب نفاذ رائحة بعينها لِتَغْلِب على كل الروائح، ويختلف الأمر في الخلاء حيث يمكن أن تتمشَّى هَبّة الرائحة دون أنْ يعترضها شيء"[2].

إنّ التصوير القرآني يوحي في هذا المشهد بأكثر من صورة لريح يوسف عليه السلام يمكن تخيلها: ربما كَسَهْم، لا يخطئ هدفه أبدا بل يصيبه بدقة متناهية، أو كصاروخ موجّه مُحدّد المسار والهدف..."قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ"[يوسف95]، لقد صَدق حدس يعقوب بالأمرين: بشأن ريح يوسف عليه السلام وبأَمْر إنكار الحاضرين عليه ما وَجَدَه، والسياق القرآني يُصوّر ذلك بشكل متناسق بالمؤكدات ذاتها : (إنك) و(لَ) لكن على لسان الحضور هذه

---

[1] - انظر: عبد الكريم الخطيب: **القصص القرآني** ص 484

[2] - محمد متولي الشعراوي: **تفسير الشعراوي**. ص 7070

المرة.إنهم يَصفونه بأنه في ضلاله القديم، ويُقسمون على ذلك، والضلال هنا هو مخالفة الحقيقة التي تقوم في اعتقادهم على المعطيات المادية.

وهذه العبارة ".. إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ"[يوسف95]، تُفيد ما يعتقده يعقوب أمر يوسف عليهما السلام. خلال السنوات الماضية، فهو لم يقطع بموته قط، بل ظل يعتقد بحياته ويرجو لقائه صابرا متجملا، دلّ عليه قوله قبل هذه الآية، حين فجعه أنباؤه باحتجاز ابنه الآخر شقيق يوسف: "قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُو الْعَلِيمُ الْحَكِيمِ"[يوسف83] أي بيوسف وشقيقه عليهما السلام "إنّه الرجاء والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته.. يتجلى في قلوب الصفوة المختارة"[1]: "فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"[يوسف96].

ويعلم يوسف أن أباه سَيُبْصر، ويعلم يعقوب أنّ يوسف حيٌّ قريب، هو علم الله وَهَبَهُ لأنبيائه وخَصَّهم به، فلا يَعْرِفْ غَيْرُهم ما يَعرِفون: ".. قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"[يوسف96]، علم مرتبط باليقين، تجاوز محدودية قُدرات حواس العامة من الناس، فحواسهم ترتبط بالمادي والملموس، لكنها لا ترقى إلى أكثر من ذلك لأجل هذا نَسبوا يعقوب عليه السلام إلى الضلال حين أخبرهم بما يجده، فهم لم يتبيّنوا خطأهم إلا حين رَأَوْا وسَمِعُوا وحَضروا الدليل المادي، فلقد "جاء البشير" الذي يحمل بشارة الخير وقميص الشفاء، فما إن يُلْقَى على وجه يعقوب عليه السلام حتى يستعيد بصره الذي فقده لسنوات من شدة

---

[1] - سيد قطب: **في ظلال القرآن**.مج11، ج11-18. ص 2025

الحزن[1]. ولقد أدّى القميص هذه المهمة، ويُمكن تفسير ذلك بأكثر من صورة: "إنه آية من آيات الله أجراها.. ببين يدي نبيين كريمين يعقوب ويوسف.. أو أنّ ذلك لم يكن أمرا معجزا.. وأنه جاء على سُنَن الطبيعة، ومألوف الحياة. وأنّ الذي ذهب ببصر يعقوب هو شدة الحزن، وأنّ الذي يُعيده إليه بصره الذاهب هو شدة الفرح"[2].. وهكذا كان للقميص في حياة يوسف كل هذا الشأن.

فلقد كان الدليل على كذب الإخوة، حين جاءوا عليه بدم كذب مدعين أن الذئب أكله، ولقد كان الدليل على براءة يوسف عليه السلام من تُهمة إرادة السوء بأهل العزيز. إذ قُدّ مِن دُبر، ولقد كان الدليل ليعقوب على حياة يوسف عليهما السلام. والسبب في إعادة بصره إليه إذ حمل ريح يوسف عليه السلام.

وفي هذه الصُور الثلاث، القميص دليلٌ مادي يكاد ينطق بشهادته، بل إن الشاهد الإنسان، قد يُنسب إلى النسيان أو التوهم أو الزور، أمّا القميص فهو دليلٌ مادي يتصف بثبات أقواله وأماراته، فلا تشوبه شائبة. وهكذا فقد ورد الحديث عن قميص يوسف - عليه السلام- في السورة "ست مرات ومن عجيب التقدير أنه في كل مرة كان يؤدي دورا مختلفا مهمّا"[3] ولذا وصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص[4].

---

[1] - انظر: المرجع نفسه، ص 2026

[2] - عبد الكريم الخطيب: **القصص القرآني**، ص 484

[3] - أحمد نوفل: **سورة يوسف دراسة تحليلية**، دار الفرقان، ط2. سنة 1999، ص 116

[4] - انظر: محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ص 6888